قصص
لـ
يحيى حقي

السلحفاة تطير
كنا ثلاثة أيتام
كن... كان
بيني وبينك

السلحفاة تطير

يشير العنوان إلى القصة المعروفة في 'كليلة ودمنة' حيث اتفقت سلحفاة مع بطتين صديقتين على حملها إلى مكان فيه ماء فأخذت كل بطة بطرف عود وطلبتا من السلحفاة أن تتعلق بوسطه وحذرتاها قائلتين : 'إياك إذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي'. ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو. فقال الناس: 'عجب! سلحفاة بين بطتين قد حملتاها'. فلما سمعت ذلك قالت: 'فقأ الله أعينكم أيها الناس'. فعندما فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت.

هذه قصة خيالية، ولكنها ليست خرافة، فوقائعها محتملة الحدوث، وبطلها ليس مستحيلاً وجوده، ومن يدري؟ ربما كان حيًّا يرزق! والواقع أنني أعرفه، بل تربطني به صلة أقوى وأشهي من القرابة والنسب، صلة الجوار. فنحن أولاد حارة واحدة. أسارع وأقول إنها - والحمد لله - حارة مسدودة، فمثل هذه الحارات وحدها هي التي تعمل في تصفية الود بين الجيران ما تعمله الزجاجة في تعتيق الشراب. على رأس الحارة تقوم دار داود أفندي بطل هذه القصة الخيالية: واجهة طويلة بها الباب على الحارة، وواجهة أخرى على الشارع، مع أنها شبر ونصف شبر عرضًا، إلاّ أنها تدل على أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لا يستطيعون رؤية الزّفات والمواكب و"الخناقات" إلاّ بثني رقابهم، وبخطر الوقوع في يد رجال الإسعاف.

وداود أفندي لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية وعاش، لكان الوحيد بيننا الذي يسكن في ملكه. والمعروف أن له أيضًا استحقاقًا في وقف عن أم أمه أو جد جده، فلماذا يتشبث بهذه الدار القديمة في هذه الحارة المسدودة؟! لو كنت مكانه لانتقلت إلى الحلمية أو المنيرة. كلنا نُجلّه لِغناه، و"نستعبطه" لنزوله إلى مستوانا، ولعلّي كنت من بين سكان الحارة، أكثرهم ارتباطًا به رغم اختلافنا في السن والمهنة.

كنت إذا عدت لداري من المطبعة في صفرة الشمس، ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره، دعاني لمجالسته وتشبث بي، كأنه يجد لذة في أن تصافح يده الناعمة النظيفة يدًا صلبة خشنة كيدي. في هذه الجلسات تأتّى لي أن أنصت لهُ أو أحثُّه على القول حتى وقفت على تاريخ حياته، وليس فيها - مع الأسف - شيء من الأسرار التي تشرئب لها الأذن. هو من أولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين، فكان من المعقول أن يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل، فأصبحوا كالحيوان البرمائي لا هو هنا ولا هو هناك. فهم لذلك أسرع انقراضًا. هو بالنسبة إلينا غني، ولكنه في الواقع فقير. ومع ذلك، فهو يعتز بأصل لا يغنيه فيستريح، ولا يسلكه في الفقراء فيريح. وماذا يفعل وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز في كرمه وجهله، في طيبته مع معارفه، وازوراره، بل نفوره، من الغرباء؟ تجافيه عن العالم الخارجي فيه تمسك بالماضي، كأنه يعيش من وراء سدّ الصين. له قصص شائقة عن تخوت الحمولي وعثمان. بين الحين والحين يخرج علبة بيكاربونات الصودا ويسفّ منها قليلاً دواء لمعدته، هو متأنق لا يأكل إلاّ أخفّ الطعام في أغلب أيامه. وهو ككل أولاء الذوات الذين تربوا في آثار عز سالف، وجدت فيه مع الكبرياء والأنفة كثيرًا من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة في معتركاتها.

أذكر هذا لأنني كنت جالسًا معه في إحدى الأمسيات، فرأيت صبي شيخ الحارة قادمًا علينا، مجدًّا في خطواته، ساهم النظرة كأنه في غيبوبة. هو زنجي وأغلب الظن أنه ولد في بوظة أو كان مهده قرعة. وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية. وعيونه المختبئة تحت جفونه المرتخية تبدو كالخرزة الزرقاء لا تفترق عن عيون التيس في جمودها ومكرها. حتى إذا وقف أمامنا أخرج من جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها لداود أفندي. ما هذه؟ دارت نظرتي خلسة في لهف حول كتفه، ووقعت على الورقة، فوجدت مكتوبًا عليها "٩١ أحوال".

- حضرتك مطلوب في القسم باكر.

- ليه؟

لا جواب.

- عند مين؟

لا جواب.

تحرك الأسود وسار. فعزرائيل لا يتريث ليبكي مع أهالي الميت. ثم ما كاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد، فأصول اللطمة أن تكون من قلمين، ومال بوجهه - وجه الوابور - على أذن داود أفندي:

- عمي يرجوك ويرجوك ألاّ تتأخر.

ثم كأنه فص وملح وذاب.

داود أفندي قلق، حائر. بين حين وآخر يسألني:

- يا ترى لماذا؟ لم أذهب للقسم في حياتي، وأشد ما أكره أن أتخطى بابه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس! أعوذ بالله! من الذي اشتكاني؟ هل أتيت جرمًا دون أن أعلم؟

كنت غير ملقٍ بالي إلى همّه التافه. ولكني انتبهت وعجبت من أن كثيرًا من الناس الطيبين لا يسلمون في بعض الأحيان من الوهم والشك في براءة ماضيهم. ألأنّ في قلوبهم نازعًا خفيّا إلى الإجرام فتختلط في أذهانهم الرغبة بالحقيقة، أم هم يستيقظون فجأة إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة؟!

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويجيء، ولكنه لا يستطيع أن يكون واثقًا كل الوثوق من أن ليس له في الوقت نفسه حياة أخرى مبهمة كالأحلام، لا يشعر بها، كما لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار: حياة تتصل طيّ ضباب كثيف، بحياة أشد غموضًا لكائنات أخرى.

كنت أود أن أهدئ مخاوفه وأطمئنه، لكني خشيت أن يعود سريعًا إلى الحديث الممل العادي الذي شبعت منه ليلة بعد ليلة، وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعًا، لأن الكلمة الطيبة قلما تقبل المطّ. وأحسست برغبة في البقاء على رأس الحارة وقد طابت الجلسة وشملنا الغروب بسحره. في كل مرة أنتبه للحظة سقطة قرن الشمس، أشعر أنها شهقة دوامة تحتضر، كان انفراجها النهار وانطباقها الليل. فأخذت - علم الله لا لغرضٍ إلاّ إطالة الجلسة الظريفة - أستثيره وأحرك مخاوفه. ونقلت الحديث من البوليس وفظاظته إلى البلطجية وأفاعيلهم. رئيسي في المطبعة له شهر في الحبس ولا يدري لماذا. وآخر اتّهمه بلطجي بالتزوير ليفرض عليه ضريبة: ولهؤلاء البلطجية حيل لا يصل إلى قرارها الشيطان إن وصل: وربما سبقوا بالشكوى ليستولوا على أجر التصالح. ومن يدري؟! ربما وجدوا فيك يا داود أفندي بطيبتك خير صيد فمدوا حولك حبائلهم. ثم إنني لست مطمئنًا إلى "٩١ أحوال" هذه! ووجه صبي شيخ الحارة ينمّ عن شر كبير، ولا بد أنه عالم بشيء لم يرد الإفضاء به إلينا. ولم أقم إلاّ بعد أن "استوى" داود أفندي، وبعد أن استحلفني أن أمر عليه في الصباح لنذهب إلى القسم معًا.

***

لا أدري هل تأخرت في النوم عفوًا أم أحببت أن أستريح من سهرة الأمس. استيقظت وقد ارتفعت الشمس، فخرجت من الحارة مهرولاً كأنني هارب. ومع ذلك تشبث نظري لحظة وأنا أجري بباب بيت داود أفندي، وخيل إليَّ أن مطرقته - وهي من نحاس على شكل يد مضمومة - تنبسط وتشير بسبابتها إليّ!، إلاّ أن لمعانها ذكّرني سوَر مقام أم هاشم، وتعلق المهزومين المرضى والمنكوبين بقضبانه. وانقبض قلبي خوفًا على صديقي داود أفندي. فمن نحس هذا الزمان ولُؤمه أن يُهانَ رجل طيب مسالم مثله، ويكون مثله عند دخول القسم كمثل حيوان أليف آكل عشب يجد نفسه فجأة في غابة تعج بكل ذي ظفر وناب. مع ذلك - وهذا شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف اليدين - نسيته ونسيت أوهامه وأنا منمح مفقود وسط آلات المطبعة وهي تضج وتصطك في حركات مفاجئة منتظمة كأنها نفضات مُقعَدٍ محموم. انتبهت إلى ذكراه وأنا أمام داره في عودتي للحارة. رأيته في انتظاري جالسًا على كرسيه متلفعًا بعباءته. عندما قاربته حمدت الله أنني وجدته في حدة وغضب أنسىاه خلفي لوعدي. ومع ذلك ما كاد يكلمني حتى فهمت مع الأسف أن لعبتي بالأمس في إثارة مخاوفه وتحريضه على رجال البوليس، قد أدت إلى النتيجة التي كنت أريدها ولا أتوقعها. أستغفر الله، أقصد أتوقعها ولا أريدها. كانت الدعوة إلى القسم في شأن مخالفة هينة: إلقاء ماء قذر في الطريق. ومع ذلك كان الجاويش من الفظاظة وقلة الأدب وداود أفندي من الكبرياء وقلة الصبر، بحيث وقعت الواقعة بينهما ثم لم أستطع أن أفهم من داود أفندي ما حصل بالضبط. بكل صعوبة وبعد تردد كبير، اعترف أن الجاويش هزَّهُ هزة أوقعت طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس، بينهم بعض من يعرفونه من أهالي الحي. حاولت أن أخفف حدته، لكنه قاطعني قائلاً:

- لازم أطلب رد شرفي.

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيهما، لا أمارات الغضب، بل أضواء سعادة كبيرة. أردت أن أقوم بواجبي وأصرفه عن التفكير الكثير في أمر تافه، لكني عدلت سريعًا، لأنني رأيت زورقه قد بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالي بأمواجه. وانقطع حديثه المبتذل. وأخذ يتكلم لأول مرة كلامًا لا يسير على قضيبين مرسومين. خفت عليه أن يعود إلى ركوده وابتذاله، فهدتني الحيلة إلى أن أقول له:

- رد شرفك وطالب بتعويض قرش صاغ واحد!

قلتها لأنني أعلم أن لهذه الجملة سحرًا غريبًا يخلب أذهان عامة الشعب والبعيدين عن المحاكم والقوانين. ولعل أكثر الحقائق بريقًا وخلبًا للأذهان ما كان أساسها التناقض. فكيف يثور من يغضب للإهانة، ومع ذلك تنتهي ثورته بأن يثمن شرفه بقرش واحد؟ أي شرف هذا الذي يقدر بقرش؟ أثرت هذه الجملة في داود أفندي، وزاد عزمًا وإصرارًا على الحصول على هذا القرش الواحد.

قضيت معه ليلتين نتشاور في كيفية رفع الدعوى، ولكن مَنْ مِنَ المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها؟ وقد وقع اختيارنا في أول الأمر على أفضل المحامين، ولكنه باتفاق الجميع ليس أعلمهم. أما أعلمهم فليس أقواهم سلطانًا ونفوذًا لدى رجال الحكم. وأقواهم سلطانًا ونفوذًا ليس أكثرهم أمانة. وأخيرًا اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا، على الأقل نستطيع أن نتردد عليه كل يوم بلا مشقة. اخترناه، لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطانه، بل لبخته. نعم لبخته، فكل من اتصل به يؤكد أن سرًا باتعًا يسنده، فلا يتولى قضية إلاّ كسبها. أغلب زبائنه من عامة الشعب الصالحين.

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفي أقرب ميعاد وأن الجاويش سيجازي أشد جزاء، وفوق ذلك يعاقب إداريًا. وشرب داود أفندي من معسول كلامه، فتخدرت أعصابه، ودفع مقدم الأتعاب جنيهين كالحلاوة.

وحددت الجلسة بعد ٤٠ يومًا.

وأخيرًا ها هو ذا القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندي. عمود تلغراف، لولاه ما شعر راكب القطار بحركته ولا بسرعته.

***

دفعته دفعًا وسط الزحام - فهو لخمة - إلى قاعة الجلسة. وأنا متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتلعثمه بين يدي القاضي ومواجهته للجاويش خصمه ثم عدوه. و"انحشرنا" في مقعد وجلسنا ننتظر دورنا. كنت أتمنى ألاّ يكون داود أفندي شخصًا من دم ولحم، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة الخيالية لأنني تألمت وأنا أراه ممتقع اللون مصفرًا مرتجف اليدين. جلس بجانبي كله عيون وآذان وليس منه لسانه. أخذت أراقبه من طرف عيني، فوجدته كالقشة في بحر، ينعكس فيها أقل اضطراب لسطحه علوًا وهبوطًا، ومدًّا وجزْرًا. اشتمله جو الجلسة من رأسه إلى أخمص قدميه. وشدّ عليه قبضته فلا يستطيع خلاصًا. كل ما يسمعه جديد، غريب، رنان، أخاذ. وأي سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة؟! صوت الجمهور بين همس ووجوم، ومحاورات القاضي والمحامين والنيابة تنقله إلى عالم غير عالمه. ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يخيم على الجميع صمت عجيب. فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط الفضاء. ثم من جديد يعود التيار إلى أشده، وإذا به محمول محملق يكاد يفقد وعيه: القفص، والجنود، نداء الحاجب. تلك التعابير القضائية التي تنحني لها الجباه إجلالاً، وهي ليست إلاّ ألفاظًا!

لم يحضر المحامي عنّا، ونودي داود أفندي ونظرت دعواه، ثم أجلت في أقل من لمح البصر.

فدفعته مرة أخرى - كالهمّ الثقيل - وسط الزحام خارج الجلسة. وما كاد يتخطى بابها حتى بلغ ريقه لأول مرة. وماذا كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف؟ لم يثر فيّ اضطرابه أقل شفقة، بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التي نعيشها نحن المكدودين المتصببين عرقًا في زحمة الحياة. ولكني ما كدت أضع ذراعي في ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهة للمحكمة، حتى رق قلبي وملأه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل. وجلسنا وعلى جانبينا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسماسرتهم. وكنت على صلة ببعضهم، فدعوتهم للجلوس معنا وعرفتهم بصاحبي. ولما افترقنا على رأس الحارة، لم يقل لي داود أفندي كعادته: "نتقابل هنا" بل قال:

- قابلني بكرة على القهوة إياها.

دفع داود أفندي جنيهين آخرين للمحامي ليضمن حضوره في الجلسة القادمة، كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه.

وكنت قد غبت عنه بضعة أيام. ولعلها أسابيع. ولما عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطًا بأصدقائه(!) من وكلاء المحامين وكلهم يحتسي القهوة والشاي. ويدخن النارجيلة على حسابه. وإذا به يشترك معهم في أحاديث مهنتهم، وتجري على لسانه نفس الألفاظ القضائية التي يتمشدقون بها، بل ويدخل معهم إلى الجلسة في بعض الأحيان. لما رأيته في هذه الحال أردت أن أساعده وأوجد له ما يشغله، فسعيت وعرفته بقريب لي معدم، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل ذو بطش وسلطان. أردت أن أخدم الاثنين، ويكفيني ثواب المسعى. اتفق معي داود أفندي على أن يقوم هو بالإنفاق على الدعوى في نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما. وأسر إلى داود أفندي أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى.

بعد يومين رأيته يحمل "دوسيها" في يده سائرًا مُجِدًّا إلى المحكمة..

***

حدث بعد ذلك أنني نسيت جاري العزيز داود أفندي نسيانًا تامًّا، لأنني كنت قد نجحت في تحقيق أمنية طالما كتمتها في صدري، ولازمتني الليالي تنغص عليّ نومي وأكلي وشربي. كنت أريد أن أتخلص من وسط عمال اليومية وألتحق بطبقة الأفندية أصحاب المرتبات الشهرية. فكم إبليت نعليّ، وأحفيت قدميّ، وكم أرقت ماء وجهي وجف لساني - ويغني قولي هذا عن التفاصيل - حتى نلت رغبتي، وعينت حاجبًا أمام باب قلم في وزارة. تخلصت من ماضيّ الكريه كله، وتخلّصت أيضًا من الحارة المسدودة اللعينة، وسكنت المنيرة.

مضى عليّ في وظيفتي زمن. وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار، وفي يدي قرطاس بلح آكل منه، مررت على مطعم ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود أفندي جالسًا أمام طبق فول مدمس. داود أفندي "بجلبية" وجاكتة، تجمع أصابعه بلقمة حبات الفول وتعجنها في الزيت، ثم تحملها ككتلة واحدة - كالكرة - إلى فمه، ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل. أشهد الله أن قلبي انشرح، وأنني سررت كل السرور لحسن صحته ولتخلصه من أمراض معدته. وأشهد الله أنني شعرت بموجة شوق قوية تملؤني، فجريت نحوه ومددت له يدي مشتاقا يكاد الفرح يقفز من كياني قفزًا.

- داود أفندي؟ سلمات، إزيك!

ولكنه ترك يدي ولم يأخذها، ولما رفع إليّ عينيه لم تستقر نظرته على وجهي حتى رأيتها تمتلئ بأقصى ما تستطيع العين أن تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض. وإذا به يصرخ في وجهي ويشيح عني:

- روح الله يخرب بيتك زي ما خربت بيتي!

تملكتني الحيرة فسُمِّرتُ في مكاني. أي جرم أتيت؟ وماذا فعلت؟ لا أذكر إلاّ أنني كنت دائمًا تحت أمره كأنني عكازه. كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه، وأترك عملي لأكون في خدمته، ولا أذكر أنني خنته أو آذيته أو أضللته.

ولكن هذه المحاولات لم تفلح في سند سياج كنت أقيمه بكل جهدي طول الوقت، لتتحصن وراءه نفسي، ولو لتعيش في دنيا أوهامها في حمى من شك خفي بدأ يدب في قلبي، وإذا بالسياج يرغمني وينهد، وتبرز لي من ورائه تحملق في وجهي كعيون البوم، تهمة بشعة كالعدم، قاسية كالقدر المترصد راسخة كالأزل.

"كن طيّبًا ما أمكنك، حذرًا ما استطعت، فلن تكون يدك إلاّ أذى، ولا قدمك إلاّ سوءًا". شعرت في جسمي ببرودة الموت، وعشت زمنًا أرثي لحالى وأقول: يا لي من مسكين! ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة، وأعدت نفسي للحياة - والحياة تقوي على أقوى الآلام! - بقولي لنفسي:

- هوّن عليك... أين فجيعتك؟ هذه قصة خيالية، ولكنها ليست خرافة...

وهكذا من أول وجديد

[١٩٣٩]

كنا ثلاثة أيتام

ها هو قد تزوج، وها هو يقبّل زوجته، في كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولدًا صالحًا تتجدد من بذرته شجرة أسرة ليست - وهنا العجب - بذات جاه أو ثراء. وجاء يومه المرجو، وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته، وقالت:

- بنت. بنت. هذه نعمة الله...

فسماها نعمات.

لم يدرك أن في أغلب الرجاء طمعا، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل في الملكوت. وعاد إلى سؤال ربه في صلاته، وأطال تضرعه في ركوعه وسجوده.

وجاء يومه المرتقب، بين الخشية والأمل، وسلمته القابلة لفّة تتلوى كالحشرة، وقالت:

- بنت. بنت. هذه عطية من الله:

فسمى الثانية عطيات.

"نعمات"، "وعطيات". لم تكن أسماء بقدر ما هي تلميح بأن الرضا عن اضطرار، وأن خضوع اليوم مرتبط بالرجاء في تحقيق الوعد غدًا. حرك الأب الأبتر كل ما في قلبه من شعل الإيمان وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع، وكرر ابتهاله وتذلله، فاستجيب في يوم دعاؤه. واستقر في بطن الأم سر الصبي الموعود.

حينئذ مات أبي، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته: أو في جهده على الغاية، وتحقق الغرض من وجوده. وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود. إن سعادة الأفراد لا وزن لها في تسلسل الأجيال.

وهكذا ولدت يتيمًا، ومع ذلك لست بغريب عن أبي، كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عيني على صورته الفوتوغرافية الشاحبة على الجدار، أراه يبتسم لي، ويكاد يناديني.

***

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب، حتى ماتت أمي، كأنها لم تقو على فراقنا إلاّ بعد أن اطمأنّت عليّ. وسرت وحيدًا منفردًا خلف النعش. أما شقيقتاي، نعمات وعطيات، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ. رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجهيهما ونهودهما من أطراف العيون. في تلك اللحظة استفقت، وأدركت أنني أصبحت رب أسرة. أية أسرة؟! فتاتان جميلتان، نعم جميلتان، وإن لم تصح شهادتي. ليس لهما غيري. قومت من ظهري المنحني، وسرت رافع الرأس، وتقبلت - على القبر - دون ثورة أو غضب وكره، عبارات التشجيع والعزاء، والتوصية بالصبر والرجولة.

***

ثم مرت الأيام، ودرج النسيان بأذياله على الماضي وأهله، وإذا بي في صحبة شقيقتيَّ من أهنإ الناس. ثلاثتُنا في مُقتبل الشباب ورونقه، في مرحه ونزقه، في جريه وقفزه، في عطره ونضرته. تساوٍ طليق، لا تضغطه شيخوخة موليةٍ، ولا تأخذ بخناقه طفولة هاجمة. من حسن الحظ أننا لم نكن في سعة تكفي للإنفاق على ثلاثتنا. فقدم الصبي وحجزت البنتان في الدار. وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها، وسلم لهما عقل غير ملتوٍ يضل في الفضاء، وطبع غير متكلف. كل منهما نمت أنثى جسمًا وعقلاً، لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال. صحبة لم يترك لي صفاؤها مطمعًا؛ فمن مثلي من الرجال تحوطه فتاتان - لا فتاة واحدة - بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص؟ لا تقل

ملابسي هندامًا ولا أكلي جودة عن زملائي المتزوجين، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذي أتبينه على وجوههم كل صباح في المكتب. كانت نفسي قانعة وجسمي سعيدا. نعيش متلاصقين كصغار القطط وهُنَّ عُميُ. حلقتنا كاملة: هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته. هي أكثرنا رزانة واتزانًا. في يدها مصروف البيت وتدبير خزينه. وبقيت عطيات "دلوعتنا الشعنونة" التي من أجلها نحرص - في خفية منها - على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضًا في سياق حديثها، وننتظر إلى أن تحين الفرصة فنجد أكبر اللذة في تعب البحث عن طلبتها، وفي التحايل على كتمان أمرها، إلى أن تعثر عليها في تمام مناسبتها، فنضحك معها لدهشتها، ونشاركها الفرح بهديتنا. وفي بعض الأحيان أضع رأسي على ركبة عطيات، فتعبث بأصابعها الطويلة في شعري كأم القرد تفلّي رأسه وتناغيه. بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة، وهي تخيط لي بعض ملابسي الداخلية. لو تركنا لأنفسنا لعشنا سعداء في هناء يكمل بعضنا بعضًا. ولكن كيف يتأتي ذلك، وفي الناس إخلاص ومحبة ورغبة في مساعدة الغير، وتطوع لعمل الخير والتحريض عليه؟!

بدأ أقاربي ومعارفي يهمسون لي: "متى تزوج أختيك؟ لقد آن الأوان!". ثم في مرة أخرى: "كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح، وأنت قابع في داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لاتزور ولا تُزار. أم تراك معتمدًا على الخاطبة ومقالبها؟".

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتيّ على غفلة منهما وأسأل نفسي:

- هل هذه عيون ظامئة جائعة؟

خيل إليّ في بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد في الفضاء، وأن تحت وشي هذه النظرات الجميلة يختبئ قزم من الحزن والحرمان: له عين البوم، وأسنان الفأر، وعناد الثور، ونزق الجدي. أيها الشيطان الأسود! مهما تراوغ فلن تخفى عليّ بعد الآن!

سهرت الليل أفكر. وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتي فاستبانت لي الحقيقة على ضوء النهار، جسدًا عارمًا قبيحًا عاريًا قويّ العضلات. لا فائدة من مغالطة الطبيعة. ولا بد من التضحية وتحمل الوحدة والصبر على مرارة التسليم والانسحاب. رسمت لنفسي برنامجًا، وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد، حتى شقيقتيّ. لن ألجأ إلى الأقارب، فهم - كما يقول المثل - عقارب، ولا إلى الخاطبة، فهي سمسار بين عجزة. أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا؟ إذن فلنبحث عنه، ولنذهب إليه، وفي موطنه، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالاً. سأعد الشبكة الماكرة بنفسي، وألقيها في طريقه بيديّ. هذا صيد حلال. وأيّ شيء أعظم ثوابًا عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس عليّ؟!

بعت بعض الحلي، وسحبت كل نقودي المودعة بصندوق التوفير، وأجرت شقة كالحُق - ولكنها غالية علي! - في جاردن سيتي، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا. عن إذنك يا درب الحجر! لقد ألغي الرق فأعتقنا لوجه الله! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة! وداعًا، وداعًا. فنحن في دار كل مقام فيها قصير، وكل صحبة إلى فراق. أتنتظرين أن أرثيك بدمعة؟ من تلفت إلى الماضي لم تكفه دموع الخنساء! أتسألينني البكاء؟ بل اسألينا النسيان، والنسيان السريع.

ولما دخلت العمارة، قام لنا بوابها: بربري له وقار القديسين وهيبة الأباطرة، ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر، ولما سمعت الوكيل يقول: "هنا الأنتريه، وهنا الأوفيس - اطمأن قلبي، وقلت: قد أحكمت الشبكة، فلننتظر صابرين، وعلى الله توكلنا.

***

عشنا غرباء زمنًا، ثم بدأنا نألف الحي وأصواته، ووجوه سكانه وعاداتهم. خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بي أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجًا بدوره. واحتوانا المصعد معًا. لا أدري لماذا اطمأن قلبي إليه. ابتسامة مني - وكنت أنا البادئ- وابتسامة منه، وصلت الحديث بيننا. هو موظف كبير، على المعاش. دعوت الله أن يكون له ابن صالح، أو ابن أخ، أو ابن أخت، أو صديق أو معرفة، وقلت: لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا، وخبروا أحوالنا واستقامتنا، تقدموا بالخطبة. دعوته لزيارتنا، فإذا به - لشدة دهشتي - يقبل بسهولة. جاء وزوجته، سيدة نصف، حنت على أختي حنو الأم الرءوم. دعتنا لشرب الشاي عندهم وقالت وهي تنصرف:

- عسى أن تكون ابنتي سنية قد عادت من الإسكندرية فأقدمها إليكم.

حاولت ألاّ يظهر غمّي على وجهي. كنت أنتظر أسماء رجال لا نساء. وقلت في نفسي: "فلتكن زيارتنا الأولى هي الأخيرة، فلم أجئ هنا من أجل التزاور مع أسرة ليس لديها رجال".

وذهبت في الموعد المضروب، وأنا متحرج ضيق الصدر.

وجاءت سنية أيها الناس! لا تبخلوا على بكرمكم وطيبتكم.

أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلي، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابي أمامها وحيرتي.

ماذا أقول؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتي. ما قبله جاهلية معتمة، وما بعده نور وإشراق، أحدثها وأسارقها النظر. وإلاّ كيف تقوي عيناي العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع في الشمس. ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة. كأن جسدها تمني فكان ثوبها تحقيق أمنيته! وكأن الثوب نفسه اشتهى، فكان هذا الجسد خليلته التي وجد لديها السكينة وطعم الحياة. ثوب كم أبدَى وكم أخفَى! استدار عليها يكاد يأسرها، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه. هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح. وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه. كل شعرة في رأسها اصطفت راضية بجانب أختها، أو التفت معها أو من تحتها، عالمة أنها تشارك في زينة، سعيدة ناعمة بالدور الذي رُسم لها. لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة، لما خدش جماله. وضحكت فأسمعتني ضحكة تختصر العمر كله. فيها سذاجة الطفولة، ومرح الصبا، ومرارة التجربة.. فم متهم وعيون بريئة. لم تهتم بي كثيرًا، وما وجهت إليّ غير نظرة أو نظرتين. ومع ذلك عندما انصرفت - وأنا أجر رجليّ جرًّا - كنت شاعرًا بتعب من جسّ دقيق تناول روحي وجسدي بأصابع توهم أنها تمسح وتربت، وهي تندس وتنقب. شعرت أنني عُرّيت وقُلّبت ظهرًا لبطن، وفُحصت واختُبرت: قيست قامتي، وسُبرت. وُزنت وكيّلت. عُركت وعُضضت بالأسنان، ورُننت على الأرض.. حُركت أوتار روحي واستُمع لموسيقاها، ثم استُخرج من مخبئه كتابي الدفين، فرُوجعت في النور صفحاته، وقُرئت سطوره كلمة كلمة. كل هذا والعيون مترددة، والشفاه مستفهمة. ثم أصدرت حكمًا لن يكون له نقض ولا إبرام، إلى آخر حياتها وحياتي.

أيها الناس! أشفقوا عليّ مرة أخرى. ولا تبتسموا من جديد إذا قلت لكم إنني تعبت حقًّا، ولكني مع ذلك وجدت في هذا التعب لذة كبرى. لم أخش حكمها، بل سرني أنها تناولتني بالفحص. كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء، بقدر ما يسعده تقلبه بين يدي طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ. انصرفت وأنا لا أزال ألوك في فمي لذة مذاقها. ولما دخلت شقتنا، حانت مني التفاتة إلى أختيّ، فقلت في نفسي - والأسى يملؤها: "ما ينقصهما والله إلاّ أن تطول الضفيرة، ويغطي الجورب السميك الرُكبة. لتبدوا شابتين من الريف... من غد إن شاء الله، سأعني بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما، وإلا كان فشل برنامجي المرسوم محققًا".

ولكني في غد نسيت كل شيء إلاّ سنية! حاولت أن أجد مسوغًا لتكرار الزيارة فلم أوفق، بل وجدت باب الشقة موصدًا في وجهي. ألأنهم رأوا لعابي يسيل وأنا أحدق في ابنتهم خلسة، فرثوا لحالى وأرادوا تجنيبي التعلق بسراب؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدى زاد هياجي، فإذا بي - وأنا المعروف باتزاني وأدبي - أفقد كل سيطرة على نفسي ورأيتني، لشدة دهشتي، آتي بحركات وتصرفات لا تصدر إلاّ عن أطفال أو مجانين. حاولت أن أستعين برشوة الخدم، فضحكوا مني. تصديت لها في الطريق. ألقيت أمامها رسائلي. تتبعتها كظلها. كل هذا وهي لا تتكرم عليّ بكلمة أو بابتسامة. أقسم لكم أنني لا أدري كم من الزمن مر عليّ وأنا في هذه الحالة. قد يكون أسبوعًا وقد يكون شهرًا. وأخيرًا ضاق ذرعي، وأحسست أن العذاب لو طال لقصفني الألم ودمر قلبي وقضى عليّ. هجمت عليها ذات يوم وهي سائرة وأمسكتها من ذراعها. لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل، وقلت لها صارخًا:

- ماذا تظنين؟ أجري وراءك طول العمر؟ أليس لي عمل في الدنيا إلاّ أن أسير في ركاب حضرتك؟ العفو! الآن أريد كلمة واحدة: نعم أو لا.

فنظرت إليّ وابتسمت..

زرت معها معالم القاهرة، فكأنني سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل. كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل، فشرحتها لي سنية بيتًا بيتًا، وأفهمتني جمال معانيها ولفتاتها. في حديقة الحيوان - التي طالما زرتها فلم أجد شيئًا - كلمتني لأول مرة، من وراء أعمدة السجن المؤبدة، عيون صافية جميلة حزينة،

وشكت إلى وحدتها وآلامها، الفضل لسنية في الراحة الكبرى التي شملت نفسي عندما آخيتهم جميعًا، من زحف منهم أو طار، أو أودبّ على أربع.

قالت لي ذات يوم:

- ما العمل إذًا؟ إن بابا يرفض بتاتًا، لأنك موظف صغير ومرتبك قليل، ولا يدري كيف تقوي بهذا المرتب على المعيشة في جاردن سيتي...

ولما رأتني مطرق الرأس غمًّا أضافت تقول:

- ولكن ماما في صفي...

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم، على أن تذهب نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتي...

كلهم قالو لي إنني ساعة "كتب الكتاب" كنت شارد اللب، ثم إذا بي فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة، ظنوها من حرج سؤال المأذون الصريح. لا يعلمون أنني - ولا أدري كيف - انتبهت إذ ذاك فحسب، إلى قسوة الفكاهة، وهي تنطبق عليّ، في المثل القائل:

"راح يصطاد.... صادوه..."

[١٩٤٢]

كن... كان

"ما معنى هذه الحياة؟".

ينخر هذا السؤال كالسوس في نفس حسين فرغلي كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كوموا مقاعده وأطفأوا أنواره يخف إليه قبل الغروب، فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول "الطاولة" ويدور اللعب بينهم - لا ينقطع لحظة واحدة - كالمعارك الحربية في غليانها وقعقعتها. يتساقى اللاعبون كؤوسًا مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة، فينهلون من وهمها ويسكرون. حسين لا يلعب بل يكتفي بتتبع الحجارة والزهر بشغف كبير. يلتوي رأسه ذات اليمين وذات اليسار، كعروس ميكانيكية انفلت ضابطها. وهكذا هو أيضًا في الحياة يعيش على هامشها، ويلوذ بالشاطئ خوفًا من تيارها. عواطفه موزعة، تارة مع الغالب، وتارة مع المغلوب. فالمحايد المحروم من لذة المشاركة في الصراع يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقصاص. إذا دار الحديث فعن العمل والوظائف والدرجات، حتى كأنهم الإبل، يجترون بالليل ما أكلوه بالنهار. أيّ عقل شيطاني تفتّقت حيلته عن اختراع هذه "الطاولة"؟ هي لعبة ساذجة متشابهة متكررة، ومع ذلك لا ينقطع سحرها (...).

خرج حسين من الجو المكتوم المفعم بالأدخنة والضجيج، وانطلق إلى الطريق. فوقه سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرح صفائها. تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خابية، لا يكاد النظر يستوعبها في مواقعها، حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبعثرة مختلفات الألوان ينظمها نغم حلو جميل. لكل لون منها نصيب في إيقاعه، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبيّنهُ، كأنما هي أيضًا عين ترى ولا تسمع. وبدأ حسين سيره إلى "شبرا"؟ وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار، يلذ له أن يحتضن أفكاره ويختلي بها، فيسرح ذهنه، وتعود إليه ذكريات قديمة. عيناه تتكلمان تارة بالسرور وتارة بالحزن. ويهتز رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة. وقد يتمتم باسمًا. (...)

آه إنه الليلة آسف على حياته، نادم من جديد. أما يأتي اليوم الذي يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه في مدرسة المعلمين وهو كاره لها؟ وكيف نكص عن الزواج بجارته آمال! تلك الفتاة التي خلبت لبه وسحرته، ورضي بالزواج من إحسان. خشي الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة، وقنع بالثانية لا عن حب، بل قيامًا بواجب، فهي ابنة عمه. اطمأن لها لأنها ربة بيت، هادئة، معتكفة، فماذا فعلت بنفسك يا حسين؟ أدرت ظهرك للنشوة والمتعة، واللذة المتجددة، والحياة المليئة بالعواطف، وآثرت حياة راكدة كالمستنقع. سرعان ما مل إحسان، وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة الممشوقة القد إلى امرأة بدينة خشنة اليدين. لم يرها مرة تستقبله عند عودته وقد سرحت شعرها أو اعتنت بزينتها. تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ. إن كان في الحياة مهنة يمقتها أشد المشقت فهي مهنة التدريس. هو عامل فرض عليه أن يبني الأساس ولا يتعداه، ثم يجيء آخرون يتممون البناء ويتمتعون به. أي لذة في عمل لا تتجسم أمامك نتائجه، فتمنح النفس جزاءها من الرضا والغبطة!؟

ما فائدة التوفر على تعهد فرخ الطيور وتغذيته، حتى إذا نما ريشه أفلت من يدك وطار؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام، والمدرس ثابت في مكانه! وإن تلفّتَ فإلى الماضي يتلفت. ما فائدة تعليم هؤلاء الصبية، وهو واثق بعجزه عن إسعادهم؟ فالحياة مليئة بالشراك والمصائد، محفوفة بالمظالم والآلام والأحزان. سيخوضون غمار معركة من أشد المعارك تطاحنًا وهَولاً، على حين أنه لم يسلحهم إلاّ بقشور من العلوم النظرية. وشقشقة لسان إن لم تكن تضر فهي لا تنفع. كم كان يود أن يكون محاميًا. إنه يحس في نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادئ وسلامة المنطق. - وهذه مواهب لا تفيده في صناعة التعليم. ولكنها خليقة بأن تتقدم به إلى الصفوف الأولى، لو أنه مارس المحاماة. ودّ حسين لو أنه استطاع أن يدافع يومًا عن مظلوم، أو يرد حقًا إلى صاحبه، ولكنه عاجز. فمما يكرب نفسه أنه يرى المظالم تتزايد أمامه وتتلاحق، ولا أمل له في أن يرى نهايتها، أو يرى عالمًا تسوده العدالة. هذا تفسير ما في نظرته من حزن عميق مختلط بغيظ مكتوم. ماذا يفعل؟ إنه يقف طول النهار ينبح أمام تلاميذ كالقرود يلهون ويعبثون، حتى يجف حلقه ويضطرب قلبه. هل نسي أن الطبيب قال له إن قلبك ضعيف يُخشى عليه من كثرة الإجهاد؟

وعندئذ تريث حسين في سيره، ووضع يده على مكان قلبه وتأوه... إنه يحس كأن إبرة تغرز فيه... لقد ساءت حالته الليلة. إنه الإجهاد الذي يخشاه.. فمتى تأتي الإجازة؟ متى؟

كان قد ترك الطريق الرئيسي وانعرج إلى درب ضيق ينتهي بالمزارع. سكون شامل ومنازل نائمة.

حدثته نفسه:

- لو أستطيع أن أرتد القهقري عشر سنوات. عشر سنوات وحسب، ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات مثلها من مستقبل عمري. سنة بسنة.

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر، حتى خيل إليه أنه يسمع زحيرًا شديدًا يتلاحق من ورائه. هل يجري في إثره أحد؟ أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام. ومع ذلك استمر هذا الزحير يسرع إليه ويدنو منه. طمأن نفسه يقول لها: لعله وهم وخيال. فالليل عالم مجهول مليء بأصوات غريبة لانتبينها، ثم سار قليلاً فإذا يد تلمس كتفه، والزحير يكاد يشق صماخ أذنيه. سمع حسين وقرأ أن شعر الرأس يقف عند الذعر، ولم يكن يصدق، في تلك اللحظة أحس كأن يدًا قاسية جمعت شعره في قبضتها وشدته شدًا قويًا يكاد يتمزق منه جلد رأسه. وشعر حسين بأن اليد التي وقعت على كتفه لوح من الثلج. فقد جمد لها قلبه، وإن يكن جبينه قد التهب لها وتصبب عرقًا.

التفت حسين مذعورًا، فوجد وراءه رجلاً نحيفًا هو إلى القصر أدنى منه إلى الطول. يرتدي ثوبًا أسود كثياب التشريفات، من طراز يرجع إلى عهد غابر، ذكّر حسينًا بصورة قديمة لأحد جدوده.. والغريب أن هذا الثوب كان فضفاضًا كأنما فصل لرجل أطول منه وأشد امتلاء؛ فقد رأى حسين أمامه رقبة نحيلة تائهة في ياقة مُنشّاةٍ واسعة... يريد ذقنه أن يعتمد على حافتها فيشنقها فرط ارتفاعها... لم ير له يدين، وخيل إليه أن الكمّين فارغان، ليس فيهما ذراعان. حدق بنظره في تقاطيع هذا الغريب. ورأى - أو خيل إليه أنه رأى - وجهًا إنسانيًا ذا عينين وأنف وأذنين... ولكن عجبًا لماذا لا تستقر نظرته على هذا الوجه؟ لم تنطبع له صورة في ذهنه، كأنما وجهه هُوّةٌ لولبية، أو سراديب ملتوية أو صورة فوتوغرافية مهزوزة.

أشاح حسين بوجهه من الرعب، ومن تلك الرائحة المنتنة القاسية التي غمرت وجهه من فم هذا الغريب. وحين بدأ الرجل يكلّمهُ، إذا بصوتهِ صوتُ طفل وديع، وإذا بهذا الصوتِ الحنون وحده يراخي قبضة اليد التي كانت تجذب شعره فيعود إلى رقاده. وخامر قلبه شيء من الطمأنينة لم يدر سببها. قال له الرجل:

- لا مؤاخذة ياسي حسين... خشيت أن تغير فكرك قبل أن أستطيع اللحاق بك. كنت مشغولاً جدًا في قصر العيني وفي مستشفى الحميات.. فأنا - كما ترى - مجهد حقًا ولي عمل شاق لا ينتهي. سمعتك تتبرع بعشر سنوات من عمرك لقاء أن تعود القهقرى عشر سنوات مثلها، وأنا في ضيق- علم الله - ومحتاج أشد الاحتياج إلى يوم، فكيف بعشر سنوات مرة واحدة.

- لا شك في أنك سعيد في حياتك. فلم أر قبلك أحدًا يتعلق بالدنيا تعلقك بها.. - لا. لا. لا أريدها لنفسي، بل لغيري.. دعني أتذكر. نعم عندي أب قارب الرحيل، وقد قدر له أن يرى ابنه الوحيد الشاب يموت قبله. سأعطي الابن شيئًا من هبتك حتى أجنب أباه تجرع غصة الألم. وهذا الشاب لو انتقل عن هذه الدنيا لحرم أولاده من ميراث جدهم. سأعطيه سنة حتى ينتهي أجل أبيه. وهذا الفتى أحب فتاة غاية الحب، سيموت قبل الزفاف - وليس أشهي على من أن أمتعه بها ولو شهرًا واحدًا. فها أنت ذا ترى أن هبتك السخية تكفي لبعض هذه الأعمال الخيرية. لهذا أسرعت إليك.

خفت الأبخرة المنتنة شيئًا فشيئًا، واستطاع حسين أن يقارب وجه هذا الغريب، بل بلغ به الاطمئنان أن ضحك في وجهه وقال:

- مهلاً! مهلاً! هذه هبة كما قلت، ولكنها - يا عزيزي الأستاذ - ليست بدون مقابل... فهل أنت قادر على أن تردني القهقري عشر سنوات؟

انتبه حسين إلى أن جوا من الطيب والرائحة الزكية تسطع من مخاطبه، وتمني لو استطاع أن يقترب منه أو يضع ذراعه في ذراعه.

أجابه الرجل وهو يبتسم:

- ألم تقرأ في القرآن الكريم ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ؟ إنني عبد من عباد الله لا أعلم أن أحدًا قد كلف بمهمة شاقة كمهمتي... وأنا مقبل على أدائها بإخلاص وبكل قوتي.. حرصًا على رضا مولاي... وإني، لحسن الظن بكرمه ومَنّه، لم ألتمس منه طلبًا من قبل، فلا أظن أنه يخيب رجائي لو سألته هذه المرة. كن واثقًا بأنني أحقق لك ما ترجوه...

ودّ حسين لو أنه تردد قليلاً، أو سأله مهلة ليفكر من جديد، ولكنه خجل من رقة محدثه، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل..

- لا مانع عندي...

- يا لك من سخي شجاع...

وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلاً:

- لا. لا. إنني لا أعرف حساب زمنكم هذا...

ثم التفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال:

- سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا في تمام منتصف الليل.

قال له حسين:

- اتفقنا...

أجابه الرجل:

- هذا القول لا يكفيني... إنني أريد منك أن تهبني السنوات العشر بالصيغة الشرعية. فقل معي:

"أهبك عشر سنوات من عمري طائعًا مختارًا، وأنا في تمام عقلي وإرادتي، على أن أعود القهقرى عشر سنوات مثلها".

كرر حسين وراءه الصيغة كلمة كلمة... فإذا بالرجل يربت كتفه ويقول:

- إنك أكبر المحسنين لو علمت. وليس أحد أولى منك بأن يقام له تمثال.

ثم ابتعد عنه، يتحرك جسده، ولا يرى حسين على أي قدمين يسير.

واستمرحسين في طريقه وهو ثمل لا يدري هل يغتبط بفعلته أم يندم عليها. همس لنفسه يقول: "إنك أسعد إنسان على وجه الأرض! ستقوم برحلة لم تتسنّ لأحدٍ من قبلك".

وفجأة وقف حائرًا وقال:

- ولكني نسيت أن أسأله: هل سأعود القهقرى عشر سنوات محتفظًا بما فيّ من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج؟... ليتني أدخلت هذا الشرط في اتفاقنا!

عشر سنوات إلى الوراء! سيغير حياته كلها... سينعم بما حرم نفسه منه... سيتجنب كل أخطائه. تألق وجهه وأسرعت خطواته، وأحس أن نشوة غريبة تهز عِطفَيْه.. فإذا به يقف من جديد وقد ساوره شيء من القلق:

- ليتني سألته كم يبقى لي من العمر بعد تبرعي بعشر سنوات؟

كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة، فإذا رائحة المرحاض تزكم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف في صفيحة القمامة.

اعتاد حسين، إذا عاد في مثل هذه الساعة، أن يجد شيئًا من الطعام على المائدة فيتناوله باردًا وهو صامت، وزوجته نائمة لا تتحرك... ولكنه في هذه المرة لم يكد يدخل حتى سمع صوت إحسان تنادي:

- من؟ حسين؟

وقامت إليه محمرة العينين، مشعثة الشعر تقول:

- عجبًا! ما كدت تدخل حتى طار النوم من عيني وانتبهت مذعورة لا أدري ماذا بي.

جلست معه على المائدة وسخنت له طعامًا، وحدثته عن بعض توافه يومها، ومع ذلك كان كلامها ينزل بردًا وسلامًا على قلبه. هي زوجه، وليس في حياتها أحد سواه. حبيسة داره، حياتها كلها وقف عليه وعلى أولاده. كثيرًا ما اشتكت وثارت وضجت، ولكنه لم يسمعها تؤلمه بكلمة تجرح قلبه. حنّ لها حسين وضاحكها، بل عرض عليها أن يسهرا معًا ويتسليا بلعب الكونكان، وهي لعبة الورق الوحيدة التي استطاع أن يعلمها لإحسان.

واستمر اللعب زمنًا طويلاً، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور، فرفع يده مسرورًا يقول:

- كُنْ...

ولكنه لم يستطع أن يتمها "كونكان"! كان الليل قد انتصف... ... ...

***

دخل عليه وكيل المكتب يقول:

- السمسار منتظر يريد أجره.

أطرق حسين برأسه ذليلاً. لقد انحدرت به الحال إلى أن أطلق بعض السماسرة يتصيدون له الزبائن من على القهاوي. لم يبلغ إيراده في هذا الشهر عشرين جنيهًا، وإنه والله ليخشى أن يعود إلى داره، فقد طالبته آمال بثوب جديد لا يقدر عليه. من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعًا؟ عاشرها وتمتع بقربها، ولكنه يشعر بأنه ظل طول عمره غريبًا عنها. لا يدري ما يجول برأسها. يريد أن يخضعها فلا تخضع، ويأمرها فتنفلت منه طليقة. ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة التي يتبادلانها كثيرًا. ثم - وهنا العجب - يضمُّهما الفراش فينسيان كل شيء في ضمة الجسد للجسد. وتعود العداوة والبغضاء في الصباح. طبيعة حيوانية يتعامي الإنسان عنها ويتعالى، وهو عاجز في قبضتها، غريق، في أحضانها: ترى أين إحسان الآن؟ ألم يكن أولى بها - وهي ابنة عمه - من زوجها العامي الذي لا يحسن معاملتها؟ ألم تكن راحته وسعادته في الزواج منها؟ ولكنه تكبر وخان، وجرى إلى آمال كالأحمق...

وسار حسين على مهل إلى داره... المحاماة؟ هي مهنة مليئة بالكذب والخداع. كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام القاضي بكلام يعلم من قرارة نفسه أنه كذب وتلفيق. كل ذلك لقاء دراهم معدودة لا تسمن ولا تغني من جوع.

آه! آه! إنه أضاع حياته. وما فائدة جهاده في المحاماة والناس كالوحوش الضارية والذئاب المفترسة؟ إن اكتسى وجه الظالم بغلالة سوداء بغيضة، فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضيئًا. ولكن حسين يتطلع إلى وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم. كل منهم تنطوي نفسه على الغلّ والحقد. لا يكتفي الظالم بجبروته، بل يهبط به جبنه إلى الدس والكيد والتلفيق... وعمي المظلوم عن نبل المطالبة بحقّه وثوابها، وامتلأت نفسه سما. لا يرضيها استرداد الحق بل الانتقام بأي ثمن من الخصم - ولو ظلما! كم كان يود أن لو اشتغل بالتعليم، لتكون براءة الطفولة الساذجة هي مادة عمله، وليساهم في بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق الفاضلة، تبدأ به مصر حياة جديدة. وهل هناك أنبل من وقفة المعلم أمام صف من الصبيان، يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى كل حركة تصدر منه وكل كلمة تخرج من فمه؟ هذا هو البناء الذي يرضي النفس. وأي مهنة أخرى تهيئ لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية؟ أما الآن فإنه يجاهد في المحاماة جهادًا زائفًا مضيعًا. أحقًا أنه يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها؟ إن صح هذا - وهو غير صحيح - فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل؟ إنه يحس في نفسه القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط. وهذه صفات تؤخره في المحاماة، ولكنها خليقة بأن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس التعليم.

قابلته آمال غاضبة تقول:

- لا أراك إلاّ والليل متقدم... وما أظنك غبت في هذا المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى... أكبر الظن أنك كنت مع صحبة السوء في لهو وعبث.

- كيف أرضيك يا آمال؟ ألاّ ترينني متعبًا؟

وضع حسين يده على قلبه وتنهد.

- إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم ويلاطفونهن ويتسلون معهن...

- وماذا تريدين؟

لوت خرطومها وتركته.

سار وراءها ذليلاً يقول:

- آمال! تعالي. تعالى نلعب الكونكان معًا، فأنا مهموم أريد أن أتسلى...

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لا يجسر على أن يمن عليها بما يفعله لإرضائها، فكل خدمة منه لها يصورها خدمة منها له.

واستمر اللعب زمنًا، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور، فرفع يده بها مسرورًا يقول:

- كُن...

ولكنه لم يستطع أن يتمها "كونكان".

انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب، ولكنه ليس بالغريب عنه. هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول. مال بوجهه الزكي الرائحة على حسين يقول:

- ياسي حسين! هل أنت ذاكر؟ لقد نفذت عهدي من الاتفاق. أليس كذلك؟

ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء وقال:

- تمم حديثك ولا تخف عني شيئًا. أكاد أفهم الآن كل ما كان غامضًا عليّ...

- نسيت أن أخبرك في ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك عندئذ من بقية العمر أكثر من تلك السنوات العشر التي تبرعت بها..

فهل أنت مستعد؟

أسبل حسين جفنيه، وخفق قلبه، ومال عليه وجه سمح منزعج بقول:

- حسين! حسين! ما بك؟

- من أنت؟

- أنا إحسان! ألا تعرفني؟ لقد كنت أمامي منذ لحظة سليما معافى. فماذا بك؟ هل يؤلمك شيء؟ رد عليّ! أأدعو الطبيب؟

ولكنه كان قد فارق الحياة، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة.

ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لا تقوى على تفسير ما حدث كيف حدث!

[١٩٤٤]

بيني وبينك

كم من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك! ذراعك في ذراعي، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير؟ أفي يومنا المسير أم في غد لم يأت بعد؟ أم هو في ماض من العمر قد ولى وفات.

كان الطريق هو الذي يقبل إليّ. يأخذ بيدي، ويريني اتصاله بالأفق، بالسماء، بالأفلاك... على جانبيه دور هادئة المأوى كصدور الحاضنات، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من نور الله.

أما الآن، بعد اختفائك، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدي فلا ينتهي. المسير سخرة، والأفق قيد، والسماء غطاء، والنجوم ترمق الأرض شزرًا. الدُورُ سجون والناس أطياف ذاهلة لا تدري ما القدر. وإن شكّت كفرت.

***

ما رأيت عاملاً في ترام أو في متجر أو في مقهى إلاّ سلّم عليك سلام الترحيب والإعزاز، فالحياة المتدفقة من روحك تمسح عن النفوس جميعها صدأ الألم والحزن، وتنفض عن الوجوه رماد البؤس والشقاء.

وأنتِ، لا تستقرُّ نظرتُك على وجه واحد ولا تتريث. تهبين، وما تُقدِّرين أيَّ مال تَنثرين؟ أفأنت عمياء كأمك الغريزة وأبيك الحظ؟

***

السينما مزدحمة وأنت لا تعبئين بأحد. المشهد مؤثر، والناس يبكون، وأنت ضاحكة:

- أأبكي من خيال؟

يا أختاه! هلاّ بكيت أيضًا من حقيقة ما عشت...

ومن يدري؟! لعلك قد انصرفت عني يوم اختفائك عابثة تقولين:

- أأبكي من خيال؟.

***

نقلت إلى أن خالتك، أو تلك التي تزعمين أنها خالتك، حدثتك عني بالأمس وقد تركتكما في العربة:

- أهذا الذي تذكرين؟ إنه ساذج، هو في يدك كالعجين فلتهنئي به.

ما آلمني هذا الوصف، بل رحبت به ورضيت. أصَدَقتْ نظرتُك فيَّ أم لم تصدق، سيّانَ عندي، إن الحب الذي يغمر قلبي هو كل ما أسألك عليه من أجر. فلا يهمني تصفيق النظارة أو صفيرهم.

***

ما أظنك أحببت أحدًا أو شيئًا حبّك الثوب الجديد، هو حب صادر من قلبك، عائد إليه، فأنت به قريرة العين، سعيدة ناجية من سيطرة الغير...

على لساني دعاء:

- ألا فليذلك الحب يومًا...

ولكن قلبي يهمس:

- خيّب الله مُناك...

***

ماذا تظنين؟ أحسبتِ يَومَ اختفائك أنني سآوي إلى عشنا فأمكث أترقب ميعادك، فإذا مضى تشاغلت بكتاب أقرؤه ولا أفهم منه شيئًا، ونظرت إلى الساعة مرة وتثاءبت أخرى حتى إذا ما انتبهت إلى مشاغلي التي أهملتها من أجلك، هبطت الدرج سريعًا، وانطلقت إلى الدروب والمسالك، واختلطت بالناس؟... أو يدور بخلدك أنني عندئذ أنسى كل شيء؟ هيهات لخيالك، مهما سكر وعربد، أن يدرك ما فعلت... لبثت أنتظرك ساعة، ثم ليلة، ثم يومًا ويومين، أسبوعًا وأسبوعين، شهرًا وشهورًا وما زلت أنتظرك. وأنا أعلم أنك لن تعودي ولكني أخشى - إذا أنا لم

أنتظرك وشاء القدر أن تعودي أو أن ألقاك في الطريق - أخشى حينئذ أن تكون لهفتي على رؤيتك قد طواها النسيان وأطفأ أوارها. ولست أريد إلاّ أن أقابلك مشبوب العاطفة، واله القلب، ظامئ العين. فأنت لو تعلمين عزيزة عليّ، وهيهات لي أن أبتذل قدرك عندي. فلأتحمل الألم طول الدهر خوفًا من إساءتك في لحظة عابرة قد تأتي وقد لا تأتي.

***

اشتريت لها الحذاء فلبسته بعض اليوم ثم خلعته:

- حذرني الطبيب من الكعوب العالية.

وألقته عنها ميتًا في عنفوان الصبا. منعني كرهي لهذا الحذاء السخيف الذي هم بأذاها من أن آسف على موته السريع.

***

أيتها الفتاة الغريرة! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك الكامنة في نظرتك؟ أأنت ساذجة قد تعلمت المكر، أم ماكرة قد تعلمت السذاجة؟ كذبي ما شئت وامكري، فليس أحبّ إلى قلبي من كذبك ومكرك.

***

هذا الأثاث اشتريته على عجل من أجل عشّنا. ما نقّبت ولا اخترت. ظل طول رفقتنا أنانيًا أبكم. لم تحيه نظرة فاحصة من عينيك. ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه. وكنت إذا انتظرتك وفات - كالعادة - ميعادك، أتطلع إلى قطعه واحدةً واحدةً، فما حنّت يومًا وأسعفت تساؤلي بجواب. حتى إذا أشرقت شمسك تلاشى كالظلام من حياتي.

ولكن ها قد حل يومك - ككل ظالم - أيها الأناني الأبكم. الآن بعد اختفائها نطقت، بل ما عدت تطيق السكوت. لا ينقطع تساؤلك "أين هي؟" "متى تعود؟" يكاد ينشق خشبك عيونًا جائعة تتلهف على نبسة من شفتي، وتكاد تتمزق منك أذرع تتشبث بي وتستجديني الجواب.

أيها الثرثار! لجّ في الكلام ما شئت. فأنا اليوم - ولم العجب؟ - كما كنت أنت بالأمس - أبكم! ولكن لا عليك أيها الوفي الأمين، أيحلّ لجريح أن يعبث بجريح؟ ليس من رباط بين القلوب أقوى من العاهة المشتركة. أنا أيضًا أيها الرفيق الكريم لا أدري أين هي ولا متى تعود! فضم بلواك إلى بلواي لعلها بهذا عليك تهون.

أيها الرفيق اللقيط! لأنت عندي الآن أعز من أطهر الأبناء.

***

أيتها الفتاة الغريرة... لم يكن لي أمل فيك، ولا بنيت من حبك أكواخًا ولا قصورًا. لا يركن إلى الأمل إلاّ من قصُر يومه فاختلس من غده.

أما أنا فقد كان حاضري يفيض بي ويفيض عني.

كان! فكل ذلك قد ولى وفات. وكأن الذي أغدق على بالأمس غير مسؤول - يتقاضاني اليوم ثمن الإسراف بالحرمان.

وكم من محروم مظلوم!

***

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضيّ، وكل حادثة ساقتني إليك. أما أنت فقد مر الحول وبعض الحول ولست أدري عنك شيئًا. ما هممت بسؤالك ولا شكا قلبي من ظمإ. فليس الغموض الذي يحوطك إلاّ انبهار العين من نورك الوهاج. وهل لك ماضٍ؟ إنك لست بنت الحوادث، بل أنت أم الحياة!

***

خَالَلْتُكِ عامًا وبعض عام. فما سمعتك تنطقين بفكرة أو تبدين رأيًا. ما تلوثت شفتاك بالحكمة، ولا نضح لسانك بالفلسفة. ما دلست الحوادث عليك معاني موهومة مزيفة ليهتز لها رأسك استعبارًا. ما سمعتك تذكرين ولا تأملين. لا ماضي لك ولا مستقبل، بل كنت في كل لحظة كمال الحياة لتلك اللحظة. تنفجر منك الحياة كمنابع الأنهار، لا يهمها أتبدد النهر أم اغتاله مستنقع. أتبخر هباء أم سار لغايته إلى البحر البعيد. تثب الحياة الغضة من عينيك. تسيل على صدرك. تتدفق من على جسدك وأنت لا تشعرين. وكنت أنهل من معينها الصافي فأجد فيه نشوة لم أجدها من عتيق الخمور. وأنت - لشقائي - لا تشعرين؛ فليس أكبر الألم ألاّ يشعر الحبيب بألمك، بل ألاّ يشعر بسعادتك.

***

ما من مرة احتضنتك بين ذراعيّ إلاّ شعرت بقسوة الموت وظلمه. هذا الجسد الغض المتألق، تتفجر منه الحياة، يصبح يومًا ما أبخرة عفنة وعظامًا نخرة.

***

ألبَسـتْها العاملة أمام المرآة كُلَّ ما لديها من معاطف، واحدًا بعد واحد، فإذا بجمالها يطغى على التغيير والتبديل، تبدو لها في كل معطف فتنة جديدة.

وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعًا.

عادت إلى المعطف الأزرق، وجربته مرة أخرى، ودار جسدها أمام المرآة. وجهها ساكن، ونظراتها ثابتة على توءميها.... "رفقًا بجيدك يا فتاتي!" ثم خلعته، وعادت إلى بقية المعاطف فلبستها كلها واحدًا بعد واحد، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق وقالت متراخية:

- هذا!

وهكذا تشاء الصدف ألاّ يتعلق ذوقك إلاّ بأغلاها!

- تريثي! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير. تعالى أريك متاجر أخرى.

لمستهُ بطرف إصبعها وقالت:

- أقضي به هذا الموسم، وفي العام القادم أشتري غيره.

كم وددت لو أنك قلت: "تشتري لي أنت غيره".

دعوت الله أن يقسم لي شراءه، كما يدعو السقيم ربه أن يمنّ عليه بالشفاء.

***

كنت معك في أحضان الرذيلة من أتقى الناس، لا تذوق شفتاي الخمر، وما بيني وبين الله عامر.

أما الآن، بعد اختفائك، فقد سكنتُ إلى الخمر، لا لأنساك، بل لأقوى على جر الماضي إلى الحاضر. لأعيش معك من جديد. فأنا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله.

***

لقيتك ذات يوم، على غير ميعاد، في منعطف طريق، أغلب الظن أنك تسكنين قريبًا منه، وأنك خرجت عجلي لأمر. كنت عاطلة من الزينة، غير مسرحة الشعر، مهملة الملابس، على كتفيك معطف لعله معطف أخيك، وفي يدك حقيبة لعلها حقيبة خالتك. كنت لا تشعرين بنظراتي تعانقك من بعيد، وأنا واقف أتردد بين لذة اللقاء وراحة التشفي. هذه التي أسرتني مضاعة بين الناس لا يشعر بها أحد. ملكة نزعت عن عرشها! هذا هو الطير المحلق يهبط على الأرض. أين جمال جناحيه وهو صافٌ في السماء، من مهزلة اضطرابه وهو يحجل ويقفز؟!

ولما ذهبت إلى عشنا. كنت أهدأ نفسًا. حسبتني أشد قوة على التخلص من سيطرتك، ولكنك ما كدت تجتازين الباب حتى هتف قلبي: "هي والله"! كوني ما شئت، ليمسخ الإهمال صورتك، ليقس الضنا على محياك، بل فليشوهك الزمن الذي لا يرحم، فأنت أنت عندي. لأنت آخر علمي وذوقي ومنتهى تجربتي. لقد كملت بك حياتي وتم وجودي، ولن أزيد بعدك شيئًا. حتى خيانتك لم يزدد بها علمي. هي تجربة أصبحتُ بعدها أكثر فهمًا لألم الخلق وأشد سخرية من ألم الخلق. فهذا العطف الذي أبذله باليمين، تسترده سخريتي باليسار.

***

ولكن صبرًا! سيأتي اليوم الذي أنساك فيه. حين يشيب شعري وتتساقط أسناني، وتنطفئ عيوني، حين يحتضنني الفراش فلا أقوى على التخلص من ضمته، وأستسلم إليه مضطرّا وأستريح، حين أفلح أخيرًا في جرّ رجلي جرًّا لأبحث عن الشمس، محدقًا في الناس وهم حولي، تحديق المشنوق في جلاديه. حين لا أستطيع أن أرى شيئًا، إذ يكون شبح الموت واقفًا أمامي. أعد أنفاسه قبل أن يعدّ هو أنفاسي.

عندئذ سأنساك! فليس أقوى من ذكراك عندي سوى الموت.

ولكن، ألا من يخبرني عندئذ كيف أمسيتِ؟ وكيف مرت عليكِ السنون؟

***

هذه المخلوقات المنتشرة في الطريق، هاربة من الدور تارة، هاربة إليها مرة أخرى.

هذه الحثالة المتوسدة أرصفة المسالك...

هؤلاء الباعة الجوالون في الزحام، بعيدون بأنفسهم عن الزحام كالأرواح الضالة...

كلهم ينطق بالقدم والدوام. ما حلول جيل منهم محل جيل إلاّ كالثعبان يبدل جلدًا بجلد...

هكذا كنت أراهم ... أما بعدك فهم لديّ الآن سياح يهبطون بلدًا غريبًا. وجوههم بلهاء في جهلها. نظراتهم تائهة لا تستقر، ولا تقوي أرواحهم المهاجرة على أن تقول عن شيء: "هذا لي!".

كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتي برؤياك.

***

عندما كنت أخرج معك في هدأة الليل، كنت أشعر بأننا وحدنا في هذا العالم! تناسينا الأفلاك والنجوم، نسينا الليل، نسينا الناس.

وكان في نسيانها أكبر اللذة والسعادة.

أما اليوم. بعد اختفائك، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير، والليل مغمض الطرف، والناس هُم هُم.

فأجد في نسيانها أكبر الألم والعذاب.

***

ألف ألف فتاة مثلك عاشت، فلمعت عيناها لمعان عينيك، وافترت شفتاها عن مثل بارق ثغرك، ثم طواهن الموت واندثر في التراب. قبلة واحدة منك لي كانت تكفي لبعث هؤلاء الموتى الجائعات للحب بعد طول الرقاد. في قبلتك لهيب ألف ألف ثغر ظامئ. أصبحت من أجلك أحب الموتى مثل حبي للأحياء.

***

وأغرب ما أعجب له أنني لا أسأل عن سبب اختفائك. وهل يستطيع من عاش معك معدوم المنطق، أن يعود فيتفهم العلل والأسباب؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبي. إذًا فلن أسأل ما حييت. وإذا مات العالم معتزًّا بعلمه - فسأموت أنا معتزًّا بجهلي.

***

قرأت بحثًا كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على المنطق العقلي، ليثبت أن الإنسان مسيّر لا مخيّر، فما اقتنعت وما فهمت أوله من آخره.

وتجيئين أنت، أيتها الفتاة الغريرة، فتكفيني نظرة واحدة من عينيك لأومن بالقدر وبالجبر. لأنني ألغيت معك منطقي وعقلي، وقنعت بالروح فآمنت.

***

لجأت إلى الكتب المقدسة الطاهرة أستنبئها: أيجيب الرحمن دعوة العاصي؟ فإني أريد إذا ما وقفت بين يدي الديان أن أسأله، قبل أن يغفر لي ذنوبي، أن يغفر لك ذنبك.

***

العالم مضطرب. والمدافع تقصف، والدماء تسيل. الدور تخربت، والنساء ترملت، والأرض أمنا العجوز في اللهيب. فماذا يكون شقائي باختفائك مع كل هذه الآلام؟ أأصرخ ليخرب العالم ما دمت أنا غير سعيد؟ لا وألف مرة لا، بل أدعو الله أن يعيد السلام حتى تنعمي يا حبيبتي أنّى كنتِ بشبابك في ظلاله، وإن حرمني هذا السلام لذتي الأخيرة: لذة التشفي!

***

في المساء أقول: الفرارَ الفرارَ يا نفس. عبثًا حاولت الاستقرار والاطمئنان للخلو والعدم. من يلومك بعد أن ذقت معها طعم الوجود؟ عودي ارجعي أيتها النفس الفطيم إلى ظلامك وأوهامك، فلست والله تدرين بعد اليوم، إذ تطوف بك أشباح السعادة: أهي ذكريات الماضي أم آمال المستقبل؟ وفي الصباح أنتفض على بسمة الفجر ونشوة الطير - أسمعها تقول: "أنت يا هذا الذي سعدت بالحب، قم! إنما العيد لك!" مهلاً أيها الطير! إنك تعيش ملء لحظتك للحظتك، بَيْدَ أن نفسي تتوقع عند الصباح قدوم المساء.

***

ودّعت القاهرة عهدَ السلام، فأطفأت أنوارها، وفاضت كالقدح أترعته يد مرتعشة لسكير زائغ البصر. واكتظت طرقاتها بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى، لم يبق موضع لقدم في ترام، أو في سيارة أو في ملهى، رأيت الكثيرين في هذا الزحام كالأسرى، على وجوههم علامات التأفف والكرب والاختناق، يودون الخلاص. فلا شيء يضيق به الإنسان ضيقه بقرب أخيه الإنسان. أما أنت فكنت في الزحام كالسمكة في الماء، تطبق عليك الجموع، ثم تنكشف وتطبق، وأنت ناعمة البال قريرة العين، بل كنت أجمل ما تكونين وأنت رافعة الرأس في الزحام، تتلاطم أمواج البَشر حول منارتك. ما سمعتك تشكين أو تتأففين. ما زاد تلفتك ولا ضجرت نظرتك، بل كنت مرحة كأنك في مهرجان... وكما رأيتك سعيدة بالحياة رأيت الحياة سعيدة بك.

***

يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيل الغروب وأنت تقولين:

- ... أعجبني الثوب لولا أزراره.

ودوّت صفارة الإنذار، وهاج الخلق وماج. هل تذكرين كيف رأينا لابسي الجلابيب والحفاة هازئين، والموسرين هاربين؟ رأينا شبابًا في شرخ الصبا غير عابئين، وشيوخًا على حافة القبر زايلهم كساحهم فهم يجرون إلى المخابئ نشطين.

وقفت مكانك وتلفتِّ يمنة ويسرة، ثم قلتِ:

- أنا خائفة!

أخذتكِ إلى أول بناء لقيناه، وجلسنا مع بوابه النوبي كأن ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفترق طول الحياة.

ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات، واشتعلت بلهيب المدافع وانفجار القنابل. ولما اهتزت النوافذ والأبواب، وعلا الصراخ، امتقع لونك، وعرقت يدك وطال صمتك.

ثم هتفت الصفارة بالأمان، فقمت واقفة، ووضعت ذراعك في ذراعي وخرجنا، وكان أول حديثك:

- ... لأن طرف الزر الأوسط على الكم اليمين شبه مخدوش.

***

تنقلت بعدك بين نساء كثيرات. لم أزد مع كل منهن عن لقاء واحد، وفيهن من هي أجمل منك وأشد سحرًا، ثم أفرّ ولا أعود، لماذا؟ أللحسرة؟ لا. فأنا أعلم أن اختفاءك قد أذابك في يمّ الحياة، وهيهات أن تعودي، ولو عدتِ لعدتِ غير ما كنت.. أللغيرة؟ هل تخشى روحي أن تكون كل امرأة جديدة بين ذراعي رجلاً جديدًا أنت إذ ذاك بين ذراعيه؟ قد يكون هذا، ولكن هل لي أن أصارحك؟ إنني أفرّ ضنًّا بنفسي على غيرك؟ فهذا الذي تحسبينه في انمحاء هو غاية الكبرياء والاعتزاز. هو الحبّ!

***

أحببت قبلك اثنتين: واحدةً ثم أخرى. كم أقسمت صادقا بين أيديهما أحرّ الأيمان على الوفاء والإخلاص حتى الموت. ثم افترقنا. وهدأت. ولم أعد أذكر شيئًا. غير أني كنت في غيبوبة النشوة أنادي الأولى بين ذراعي الثانية، وكم فاجأت شفتيّ تتمتمان باسمٍ دفين وأنت بين ذراعي لا تشعرين، فهل الذي جرى عليهما سيجري عليك أنتِ أيضًا؟ إن الزمن يلح عليّ بالخلاص فأعصيه، والمنطق يسخر مني فأسخر منه، والحياة تتشبث بتلابيبي فأتملص من قبضتها وأفرّ. ولكن هل أقوى على مغالبة كل هؤلاء الخصوم مجتمعين؟ سأنساك! سأنساك! ولكن هيهات لي أن أنسى أنني نسيتك.

***

الآن بعد اختفائك، أقول وأنا وجل: هل أحببتها لأنها ذكرتني بمن مضى؟ أفي نظرتك أم في صوتك أم في سذاجتك لقيت مَن خِلتُ أنني دفنته؟ ولكن لا! ما فات مات. مات إلى الأبد. ولم نخدع أنفسنا؟ الذكرى إنما تجر من القبر هيكلاً نخرًا باليًا في لون أغبر وكفن حائل، أجوف قد نُزع منه الكلام. نومئ فلا يفهم، ونشير فلا يفطن. عدم متحجر، قائم ونحن نضطرب وندور، فلا نعرف إقباله من إدباره. إن بصيصًا من نور خافت ينبعث من حي، كاسف جميع الشموس الغاربة! الآن أومن أنني أحببت من سبقك، لأنهما كانتا تشبهانك أنت.

***

يا رب! يا أرحم الراحمين، وسعت رحمتك حنق المهزومين وثورة المحرومين وقد تاهوا في ملكوتك. ما أجهلهم وإن كانوا مؤمنين!

وسعت رحمتك من أضلّتهُ بصيرته، فجحد، وأنكر، وكفر كفر الأعمى بالنور.

وسعت رحمتكَ من ركبه الجهل، وساقته الحماقة فتعالى وأبي السجود، آنفًا من أن يرسف فيما توهم من قيود.

بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك، فجدف وتمرد.

لا أقول بمثل قولهم: لماذا خلقت الشر؟ لماذا برأت الرذيلة؟ ولكني أسألك يا إلهي: لماذا جعلت الحق على النفس ثقيلاً، والباطل هينًا؟ لماذا خلقت الفضيلة مملة والرذيلة فاتنة؟ لماذا خلقت الحب روحًا هائمة لا تخضع لعرف أو لقانون: طيرًا لا يحطّ إلا ليحوم؟ يفزعه الأمن والسلم والدوام، والحياة عنده وجْد ووَلَه وهيام؟

لا يستقر ولا يهدأ، لا تزيده العبرة إلاّ استهتارًا، ولا النصيحة إلاّ عنادًا. لم جعلت السعادة سرابًا والوفاء محالاً، والنيات مقعدةً، والنسيان عداء؟!

أنت مطّلع على الضمائر والقلوب، فاعطف اللهم عمن تثاقلت قدماه في الطريق السوى فلم يقوَ على اللحاق بالقافلة تنفصّد عرقا وملأً، وانحرف إلى البيداء ضالاً يناجي النجوم، وكلّ زاده نجواه لنفسه:

- ما ظنك بالله العلى القدير، الرؤوف الكريم!

****

أجوس بعدك خلال القاهرة، فأعود من أحيائها الأوربية بقلب فاتر كليل، وطعم بين المر والحلو، كفقير يرتد عن زيارة ابنه الغني العاق، وإن عزّ على قلب أبيه. يضيع مني شبحك في الأوبرا وجروبي. وبين شبرد والكونتنتال، فإذا قادتني قدماي إلى سيدنا الحسين ومررت تحت البوابات الهرمة، ووقفت أمام الجوامع العتيقة، هصر الشوق قلبي هصرًا...

فأنت عندي هذا التاريخ.

وإذا ما فاض بي الحنين إليك أبكّر إلى قصر النيل مترقّبًا جموع الفلاحات قادمات من الريف، على رؤوسهن سلال الخضر، ثيابهن سود، على أرجلهن الطين، معتدلات القوام، في وجوههن المجهدة عيون صابرة. لا ينقطع تدافعهن، ولا ثرثرتهن. عندئذ ألقاك؛ فأنت عندي هذا الوطن.

ويغلبني الوله على أمري يوم "طلوع القرافة" حين أتتبع بنظري عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأسرة كلها رجالاً ونساء، شيوخًا وأطفالاً، أمامهم "السحّارة" المنحدرة من قبور الفراعنة، يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد في مدينة الأموات.

فأنت عندي هذا العيد!

****

الآن أذكر، والآن فهمت.

في صباح اليوم الذي اختفيتِ فيه، كنت أجول في خان الخليلي، فنادتني من سجنها الزجاجي مسبحة جميلة وأشارت إليّ أن خذني معك.

تناولتها بودّ، وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أواصر صداقة وثقت بأنها ستدوم. تساقط حباتها كقطرات الماء على الغدير. حديثها الخافت إلي: عن الألفة بين القلوب في عالم الوحدة، عن الطمأنينة في اللقاء المقسوم وإن طال الغياب، عن الوجل من الفراق المحتوم رغم اللقاء.

عدت بها إلى عشنا، فلم أكد أدخله حتى انقطع من حيث لا أدري خيطها وتناثرت حباتها. أهو نذير، أم شيطان يغار؟ جثوت على الأرض، وجمعت حبّاتها، وعددتها فإذا هي تنقص حبّة. دسست يدي، ونبشت بأظافري تحت المقاعد والسجاد. ولكن عبثًا! فحزنت وأسفتُ.

قد تسألين: أكلّ هذا العناء من أجل حبّة واحدة صغيرة، وفي يدك منها عشرات؟

فأجيبك: هكذا مسبحتي! لا يحيا جمالها إلاّ بهذه الحبة الواحدة الصغيرة.. التائهة

[١٩٤٠]